

تفسير ابن كثير

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى دعائه ، الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم ، فقال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) قيل معناه : تذلا واستكانة ، و (خفية) كما قال : (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) [الأعراف : 205] وفي الصحيحين ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إن الذي تدعونه سميع قريب " الحديث . وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس في قوله : (تضرعا وخفية) قال : السر . وقال ابن جرير : (تضرعا) تذلا واستكانة لطاعته . (وخفية) يقول : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه ، لا جهارا ومراءاة . وقال عبد الله بن المبارك ، عن المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن ، وما يشعر به الناس . وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ، وما يشعر

به الناس . وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به .
ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر ، فيكون
علانية أبدا . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان
إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه
لا يحب المعتدين) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال : (إذ نادى ربه نداء
خفيا) [مريم : 3] . وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ،
ويؤمر بالتضرع والاستكانة ، ثم روي عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس في قوله : ()
إنه لا يحب المعتدين) في الدعاء ولا في غيره . . وقال أبو مجلز : (إنه لا يحب المعتدين
(لا يسأل منازل الأنبياء . وقال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن
بن مهدي ، حدثنا شعبة ، عن زياد بن مخراق ، سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد; أن
سعدا سمع ابنا له يدعو وهو يقول : اللهم ، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوها من
هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال : لقد سألت الله خيرا كثيرا ، وتعوذت
بالله من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه سيكون قوم

يعتدون في الدعاء " وقرأ هذه الآية : (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين)
وإن بحسبك أن تقول : " اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ
بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل " ورواه أبو داود ، من حديث شعبة ، عن
زياد بن مخرق ، عن أبي نعامة ، عن ابن لسعد ، عن سعد ، فذكره والله أعلم . وقال
الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا الجريري ، عن أبي نعامة : أن
عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : اللهم ، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا
دخلتها . فقال : يا بني ، سل الله الجنة ، وعذبه من النار؛ فإني سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : " يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور " وهكذا رواه ابن ماجه ، عن
أبي بكر بن أبي شيبة ، عن عفان به . وأخرجه أبو داود ، عن موسى بن إسماعيل ، عن
حماد بن سلمة ، عن سعيد بن إياس الجريري ، عن أبي نعامة - واسمه : قيس بن عباية
الحنفي البصري - وهو إسناد حسن لا بأس به ، والله أعلم .